الاتصالات و الهجرة العربية المغربية
إلى بلاد السودان الغربي
خلال عهد الموحدين الأول
(٥٤١-٥٩٥هـ/١١٤٦-١١٩٩م)

د.يوسف عابد
جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة-الجزائر

مقدمة:

يتعرض هذا البحث إلى الصلات المبكرة التي ربطت ضفتي الصحراء الكبرى، و إذا كانت الضفة الشمالية معروفة وتشمل جنوب بلاد المغرب بأقسامه الثلاثة.فإن الضفة الجنوبية تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى بحيرة تشاد شرقا والتي ضمت عددا من الوحدات-الكيانات- السياسية مثل: جاو، تكرور، غانة، مالي،وواضح أن مساحة البحث واسعة، وزمنه ممتد أيضا مع قلة المصادر التاريخية، فالمؤلفات السودانية بعيدة، يرجع أقدمها إلى القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي.إلا أن مؤلفات الجغرافيين العرب أمدتنا بمعلومات يمكن أن نتلمس بها طريقنا لبحث هذا الموضوع.

-الاشكالية:

لقد لعبت الصلات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي دورا بارزا في توسيع شبكة الطرق وتنوع السلع المتبادلة بين الضفتين، والإشكالية التي أود

أن أعالجها هي إلى أي مدى استغل العرب الفاتحون منهم والطارئون هذه المسالك ؟

- و إذا تحقق للعرب ذلك فما هي الآثار الثقافية الدالة على تواصلهم مع أهل السودان الغربي .

الصلات بين ضفتي الصحراء

ترجع الصلات بين شمال الصحراء وبلاد السودان الغربي إلى فترة متقدمة من الفتح الإسلامي و إن كان يصعب تحديد تاريخ بدايتها بدقة فقد أكدت تلك الصلات مجموعة من النقوش الصخرية تحمل أشكال رسومات لخيول، وتمتد هذه الرسومات الصخرية من وادي درعة جنوب المغرب الأقصى [1] وتتجه نحو الجنوب الشرقي مرورا بمنطقة توات وصولا إلى نهر النيجر

ويستفاد من الدراسات الأثرية أن هناك طريق آخر يقطع الصحراء أفقيا منطلقا من جنوب خليج سرت، ليعبر جبال الهقار [2]في المغرب الأوسط

ويصل هو الآخر إلى نهر النيجر أين تأسست مدينة جاو، والتي تعد من أقدم مدن بلاد السودان [3]

ويؤكد المؤرخون والرحالة [4]أن التجار المسلمين الأوائل كانوا يتوجهون إلى بلاد السودان عبر هذين المسلكين ويدعم هذا الرأي وجود ممالك سودانية بالقرب من نهاية المسلكين مثل "غانة ومالي " والتكرور، الأمر الذي جذب

---

[1] محمد زنيبر تجارة القوافل في المغرب، بحث منشور في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري

[2] محمد الفاسي مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا -اليونسكو 1994 ص ٥٩

[3] ابن حوقل صورة الأرض، دار صادر، بيروت، طبعة ليد 1938

[4] البكري المغرب في ذكر بلاد افر يقيا، والمغرب، دار الكتاب الإسلامي القاهرة ب ت ص131

المزيد من التجار، إن هذا الوضع يحفزنا على طرح أسئلة من قبيل متى بدأت الاتصالات التجارية بين تجار بلاد المغرب وتجار بلاد السودان الغربي والمقاربة الأولى نجدها عند اليعقوبي -ت 284هـ/ 897م- حيث يذكر المسلك الرابط بين سجلماسة والسودان[1] يقدر المسافة بينهما بخمسين يوما ثم نجد مؤرخا آخر يطور المعلومة ويدققها حيث يقول ياقوت الحموي -ت626 هـ/ 1226م- على لسان أحد مؤرخي البلاط الفاطمي وهو المهلبي كان حيا خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي [2] يقول المهلبي "أودغست مدينة في قلب البر الجنوبي، بينها وبين سجلماسة أزيد من أربعين مرحلة بها أسواق جليلة، وهي مصر جليل والسفر إليها متيسر من كل بلد، و أهلها مسلمون يقرأون القرآن ويتفقهون ولهم مساجد وجوامع "[3]

وبإضافة المعلومة التي أوردها البكري-ت ٤٨٧/١٠٩٤هـ - التي مفادها أن عبد الرحمن بن حبيب حفر ثلاثة آبار على طريق القوافل التي تربط بين مدينة تامدكة -جنوب المغرب الأقصى-ومدينة أودغشت [4]، وهذا ممكن جدا إذا اعتبرنا أن الفترة الفاصلة بين الاتصالات الأولى والنصف الأول من القرن الثاني الهجري والنصف الثاني من القرن الرابع الهجري كافية لتزدهر الثقافة الإسلامية، وتظهر المعالم الحضارية في السودان الغربي

تؤكد هذه الشواهد أن بدايات التبادل التجاري بين الضفتين تعود إلى النصف الأول من القرن الثاني الهجري، حيث تدعم انتشار الثقافة الإسلامية في الضفة الجنوبية بفضل جهود الدعاة، وخاصة عندما استقر الاباضيون على

---

[1] نفسه ، ص 137 136

[2] عبد الله العروي تاريخ المغرب، ترجمة فوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسة والنشر بيروت 1977، ص 133.

[3] ابن عذاري البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط 3، 1983، ج 4، ص 710

[4] البكري، المغرب، ص 168

أطراف الصحراء [1]، في واحات فزان، وجبل نفوسة، وغدامس، ووارجلان، الأمر الذي قوى العلاقات التجارية، والاجتماعية بين سكان بلاد المغرب والسودان الغربي، هذا بالإضافة إلى جهود الدولة الرستمية في إزالة العوائق الأمنية، ومن جهة أخرى ساهم الخوارج الصفرية المداريون المستقرون في مدينة سجلماسة منذ سنة 140هـ/ 757م حيث شكلوا إمارة هناك [2] حافظت على أمن النجار

-تطور الصلات بعدما توسعت مدينة سجلماسة وتنوعت عمارتها-عمارة سكينة، ودينية، و إدارية- ازداد عدد القوافل التجارية وكبر حجمها واتخذت المدينة مركزا تتجمع فيه، لتتوجه نحو أدرار ثم إلى أودغشت، فمدينة غانة الواقعة على بعد ستة أيام من الجنوب الشرقي وقد تغير طريقها نحو وادي السنغال[3] يتفق هذا مع نتائج الحفريات وتحاليل بعض البقايا الفحمية التي أظهرت بكل وضوح أن النشاط الحرفي كان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري الموافق للنصف الثاني من القرن التاسع متطورا [4] حيث عثر على عدد من الأقداح الزجاجية وقطع من الخزف قد تكون مجلوبة من أفريقية خلال الفترة (٢-٣هـ/٨-٩م) . إن هذه المكتشفات الأثرية تدل على حدوث تجارة عابرة للصحراء وهي مدعمة للمصادر المكتوبة مثل ما جاء به المالكي الذي يقول إن حجم القوافل التجارية التي كانت تخرج من افريقية تونس إلى بلاد السودان الغربي قد يصل إلى مائة جمل بأحمالها و أعوانها[5]، لقد سعى الفاطميون إلى

---

[1] اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 360

[2] محمد ناصر، دور الإباضة في نشر الإسلام بغرب أفريقيا، سلطانة عمان د ت ،ص 101

[3] محمد إسماعيل، خوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء، ط 1، 1976 ص 112.

[4] البكري، المغرب،ص 172.

[5] محمد الطالب استقلال المغرب، تاريخ إفريقيا العام اليونسكو المجلد 3، ص 99.

توفير إمدادات كبيرة من النقود الذهبية وذلك لتنشيط الحركة التجارية وتبادل السلع خاصة تجارة الذهب والرقيق[1]

كما شهد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي، ازدهار التجارة عبر الصحراء إثر قيام قوة سياسية جديدة نجحت في توحيد قبائل المغرب الأقصى، و أجزاء من قبائل المغرب الأوسط وامتد نفوذها إلى بلاد الأندلس هذه القوة هي دولة المرابطين التي وفرت ظروفا آمنة للتجارة بفضل توحيدهم لقبائل الصحراء التي سكنت في المنطقة الممتدة بين جنوب بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي [2] و أهم تلك القبائل لمتونة وجذالة ومسوفة وقد أسفر هذا الجهد الوحدوي عن التخلص من قبيلة مغراوة الزناتية التي كانت تسيطر على مراكز تجارية ممتدة عبر الصحراء [3] وهي درعة سجلماسة وهذا خلال الفترة 446هـ/ 1054م 451 -هـ/ 1059م ثم عاد المرابطون لتوجيه قوتهم نحو مدينة أودغشت عام 452هـ/ م فاستولوا عليها،و بذلك تحكموا في المنفذ الثاني لطرق التجارة عبر الصحراء مما مكنهم من السيطرة على التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها[4]

الهجرة العربية المغربية إلى جنوب الصحراء: عرفت بلاد المغرب خلال العهد الموحدي الأول حراكا قبليا واسعا بسبب التدافع السياسي الموحدي المرابطي، وقد تبين للخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين سنة 0541هـ 1146م، أن للعرب صفات قتالية لا تتوفر لدى سكان المغرب،فرغب في تهجيرهم من الجهة الشرقية لبلاد المغرب إلى الجهة

---

[1] الإدريسي، السابق، ج 1، ص 118.

[2] محمد إسماعيل، الخوارج ، ص 10

[3] نفسه ص 12 11

[4] الإدريسي، نزهة المشتاق، ج 1، ص 113

الغربية. وتم له تنفيذ هذا المشروع سنة 547هـ/ 1152م عندما استولى على بجاية عاصمة الحماديين آنذاك وحاصر القبائل العربية المستوطنة في هذه المنطقة وما جاورها فنقل النساء والأطفال إلى عاصمة الموحدين -مراكش [1]لتثبيت العرب في مجالها الحضري حيث بدأ يرتب العناصر العربية ويهيئهم لوظائف مختلفة تتراوح بين المهمات الحربية والاجتماعية والإدارية، الأمر الذي سمح بوقف الفوضى والتآمر عليه وتحقق من خلال ذلك التوازن المجتمعي [2] الأمر الذي شجعه على نقل مجموعة أخرى من القبائل والعشائر العربية إلى الجهة الغربية لتمكين نظام الحكم الموحدي من التحكم والسيطرة ومن تم بسط سلطانه على كامل بلاد المغرب .

لقد كللت سياسة عبد المؤمن الداخلية بضم القبائل العربية و إدماجها في الحياة العامة ببلاد المغرب وخاصة بعد أن أنزل الهزيمة الساحقة بالعرب في الجهة الشرقية بنواحي سطيف، وبجاية سنة 555هـ 1160م وفي هذا المرحلة انتقل عبد المؤمن بن علي إلى العناية بالفرسان حيث أخضعهم للراحة والتدريب استعدادا للحروب في الأندلس لاحقا

وكانت هذه السياسة بمثابة دعوة صريحة للعديد من الأسر العربية للالتحاق بمراكش طواعية حيث اجتمعت أعدادا كبيرة من العناصر العربية المهاجرة إلى مراكش و أحوازها، ونخلص إلى أن الموحدين اعتمدوا سياسة [3]تهجير القبائل العربية وغيرها، وجعلوا ذلك تقليدا يلجئون إليه كلما ظهرت

---

[1] ابن خلدون، العبر ج 2، ص 21 20

[2] كان عبد المؤمن بن علي ينتمي إلى قبيلة كومية البربرية المستقرة في تاجرا بنواحي تلمسان والمدية في حين كانت بقية قبائل مراكش تنتمي إلى قبيلة مصمودة البربرية وتريد زعيما ينتمي إليها، الأنيس، ص 136

[3] البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق ليفر بروفنسال باريس 1928، ص 123

الحاجة سواء كانت اجتماعية أو سياسية لوقف تطاول بعض القبائل المصمودية لدواعي جهادية كما هو الحال في الأندلس

فقد واصل الخليفة الموحدي الثالث أبو يعقوب المنصور-585- ٥٨٥هـ/١١٩٠-١١٩٨-. تنفيذ سياسة تهجير القبائل العربية ، وذلك خلال الاضطرابات والقلاقل التي أحدثها بنوغانية الصهناجيين بافريقية وبجاية سنة 582هـ/ 1188م، وفي وسط هذه المعارك وجد العرب الهلاليون أنفسهم طرفا في الصرع الموحدي المرابطي، الأمر الذي دفع بالخليفة أبي يعقوب إلى حصار القبائل العربية و إجبارها على الاستسلام ثم الهجرة إلى بلاد المغرب الأقصى [1]فهاجرت عشائر من قبيلة جشم، والأثبج، ورياح حيث أمر الخليفة بنقلهم إلى المغرب الأقصى لتخفيف الضغط ،و إبعاد شبح التحالفات المضادة[2] وفي الوقت الذي استقرت فيه القبائل العربية بمراكش و أحوازها، وجدت نفسها، على أرض تشبه تلك التي سكنتها سواء في مصر أو جنوب إفريقية مثل بلاد الجريد والزاب وغيرها هذه الأراضي تتوفر على مجال رعوي مناسب وبحكم امتداد هذا المجال الجغرافي امتدادا طبيعيا، اجتماعيا، واقتصاديا نحو الجنوب وصولا إلى بلاد التكرور مرورا بأدغشت وسجلماسة وخاصة أن الوالي العربي عبد الرحمن بن حبيب والي المغرب130- 138هـ/ ٧٤٧-٧٥٥م

كما اشرنا له سابقا قد مهد الطريق نحو بلاد السودان الغربي و بدرت عشائر من قبيلة بني معقل التابعين لقبائل بني حسان الهلالية إلى الهجرة الجماعية نحو جنوب الصحراء، [3] واستقرت على ضفاف نهر السنغال، ونهر النيجر، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بصفة صريحة فقال إن كثيرا من بطون

---

[1] ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج 07، ص 120

[2] ابن ابي دينار المؤن س ، ص 115، ص 132

[3] إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانة الاسلامية، ص 40، 43

عرب المعقل استولوا على مراكز تجارية هامة قريبة من بلاد السودان "[1] ومنها تنقلوا إلى بلاد السودان و أطلق عليهم المؤرخون والرحالة اسم قبائل الشابات، وهي فروع من بني معقل سيطرت على قبائل لمطة جنوب المغرب لأقصى، و أجبروهم على دفع الضرائب وكذلك فعلت قبيلة بني حسان حيث استقرت على أرض درعة أقصى جنوب المغرب كمرحلة أولى، ثم توغلت نحو مواطن المرابطين الصنهاجيين وخاصة قبيلة مسوفة المتاحمين لبلاد التكرور، ومما يدل على هجرة القبائل الواسعة خلال العصر الموحدي هو لجوء بعض السياسيين المعارضين للدولة الموحدية إلى أرض السودان، كما فعل أحد أبناء السلطان عبد الواحد الرشيد 640هـ/1235 1245 م حيث احتمى بقبائل بني معقل التي آوته وحمته مع بعض أتباعه و أسرته -630[2] " لقد أصبح من المؤكد أن هجرات العرب قد توالت على بلاد الصحراء، و أنهم تمكنوا من جمع أفرادهم، و حيازة مجالات جغرافية أقاموا عليها تجمعات سكانية سرعان ما توسعت و أثرت في القبائل الإفريقية المجاورة لها لدرجة أن سلاطين وأفراد تلك المناطق عبروا عن تطلعاتهم نحو بلاد المغرب فتبادلوا الهدايا والوفود، ومن تم فسح المجال أمام القوافل التجارية، و تأمين الطرق التجارية، وفي هذا الاتجاه جهز السلطان المريني يوسف الناصر بن يعقوب حملة عسكرية قوامها اثنتي عشر ألفا من عناصر الجيش و أقام معسكرات على مسافات متباعدة حول المسالك التجارية المؤدية نحو الضفة الجنوبية للصحراء في الجهة الغربية "مالي والنيجر "[3] استقرت القبائل العربية هناك في بلاد السودان الغربي، وكونت اتحادا سياسيا مع القبائل المجاورة عرف باسم سلطنة أزواد - EZOUAD - على أراضي تمبكتو وما

---

[1] د أحمد الشكري، الإسلام ولمجتمع السوداني، ص 91

[2] أحمد باب التنكي، نيل الابتهاج، ج 2، ص 297

أحمد إبراهيم دياب، علماء السودان في القرنين 17 16م، ص ص 161 – 159

[3] الهادي مبروك الفراح، مملكة مالي الإسلامية، ص 167

جاورها، و انضمت كغدامس إلى هذا الاتحاد الذي ارتبط بمسلك يتجه نحو عين صالح [1] ثم توات ثم تنبكو هذا بالإضافة إلى مسالك تجارية تربط مراكش بتافيلالت ثم تنبكتو وفي القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي تعددت المسالك التي تربط الصحراء الكبرى الجنوبية بالدول المشرقية والمغربية، وذلك بفضل اهتمام أوروبا بالصحراء حيث عمد قناصل بريطانيا و فرنسا و ألمانيا بجمع المعلومات عن الصحراء الجنوبية ، وظهرت جمعيات مدنية مهتمة بالصحراء مثل الرابطة الإفريقية بلندن التي كتبت أول تقرير لها عن تلك المناطق سنة 1788م هذه الرابطة كونها بعض العلماء والتجار في انجلترا أطلقوا عليها ا سم رابطة النهوض بكشف الأجزاء الداخلية في إفريقيا

-ازدهار العلاقات:

إن ازدهار العلاقات الثقافية بين ضفتي الصحراء، خاصة الجهة الغربية قد تجسدت عندما سيطر بنو زيان على منطقة امتازت بأهميتها التجارية منذ أن عدت تلمسان أهم مستودع للتجارة في المغرب الأوسط بعد تاهرت و بموقعها عند ملتقى الطريق الرئيسية التي تربط بين وهران و الواحات الصحراوية، وامتدادها من الشمال إلى الجنوب حتى السودان الغربي،و التقائها بالمحور الغربي الشرقي الذي كان يربط مدينة فاس بالسودان الغربي فإنه سرعان ما سيطرت تلمسان على المراكز الأخرى و صارت مركزا للتجارة بين أوروبا و المغرب و السودان الغربي.

يعود هذا إلى اتصال تلمسان المباشر بسجلماسة المحطة الصحراوية الهامة ،و كان يغمراسن قد أدرك أهمية سجلماسة التجارية فشن عليها هجوما ناجحا سنة 662هـ/1264م بعد الهجوم الفاشل الذي شنه قبل سبع سنوات[2]، و كانت

---

[1] البرزلي، فتح الشكور، ص 131

[2] ابن خلدون، العبر، جزء 7، ص85.

بلاد المغرب تعمل على إعادة ترتيب أوضاعها تحت سيطرة الدول الثلاث (المرينيين-الحفصيين-الزيانيين) و في هذه الحالة يذكر العمري أن مملكة كانم برنو امتدت إلى الشمال حيث قال: "مبدأ هذه المملكة من جهة مصر بلدة اسمها (دلا) و آخرها بلدة يقال لها (كاكا)، و كاكا هذه هي قاعدة سلطان البرنو حسب ما يشير إليه القلقشندي[1].

و يعزز هذا الرأي ما ذكره المقريزي من أنه في سنة 700هـ/1300م كان ملك البرنو الحاج إبراهيم من ذرية سيف بن ذي يزن و تولى الحكم من بعده إدريس ثم أخوه داوود و هؤلاء كلهم حكموا باسم الشريعة الإسلامية مما يدل قطعا على تعمق الثقافة الإسلامية في بلاد السودان الغربي[2].

وإذا ما تحولنا قليلا نحو مالي و غانا فإنما نجد مجموعات سكانية منفردة من البيضان في مالي كما يشهد على ذلك ابن بطوطة حيث يقول: "إن قرية زاغري هي كبيرة سكانها تجار السودان، و تسكن معهم مجموعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج و يسمون صغمغو، و يسمى أهمل السنة المالكيون عندهم باسم توري[3]، و مازال سكان غانا يطبقون حتى اليوم اسم توري على البيضان.

لقد ذهب بعض الجغرافيين إلى أن تسمية الصغمغو التي أوردها ابن بطوطة هي تحريف لاسم القبيلة البربرية صنهاجة خاصة إذا علمنا أن صنهاجة كان لها نشاط سياسي في شمال غانا أي في مدينة أودغشت حيث تشكل الحلف الصنهاجي لمجابهة أخطار السودان الغربي[4]، و يضاف إلى هذا الوجود

---

[1] صبح الأعشى، جزء 5، ص 281.

[2] ابن بطوطة، الرحلة، ص698.

[3] الرحلة، ط، صادر بيروت (د.ت)، ص 680.

[4] البكري: المغرب في حلى المغرب، بعناية دوسلان، الجزائر (د.ت)،ص 236.

المغربي في السودان الغربي استقرار مجموعات أخرى من البربر المسلمين سكنت منطقة رأس الماء في (وسط دالتا نهر النيجر) تسمى مداسة و تنسب هذه المجموعات إلى قبيلة صنهاجة[1]. و قد تعرض مؤرخ آخر من القرن السادس هجري إلى مجموعة مداسة فقال: "فإذا سرت من غانا تريد (تادمكة) فأول ماتلقى مدينة صغمغو، و هي على ثلاث مراحل من غانا تقع على نهر النيجر و هي آخر عمل غانا إلى الجنوب حيث يصب نهر النيجر في مدينة بوغرات التي تسكنها قبيلة من صنهاجة تعرف بمراسة (مداسة)"[2].

وقد عرف الإدريسي سكان مدينة مداسة بقوله: "و هم أسلاف قسم من الطوارق"[3]. و هكذا نجد الإسلام قد انتشر جنوب غانا و مالي،إضافة إلى انتشاره في العاصمة غانا.

-**الآثار الثقافية** من الثابت أن تعمير البادية المغربية قد تم في القرنين الخامس والسادس الهجريين الحادي عشر والثاني عشر على إثر الهجرة العربية الهلالية إلى بلاد المغرب، وانتقلت بعض هذه القبائل مثل "بني حسان وبني معقل، والشابانات الخ "إلى الصحراء الغربية، وبلغت بلاد السودان الغربي كما اشرنا إلى ذلك سابقا، وتعربت القبائل الإفريقية المستقرة في الجزء الشمالي المحيط ببحيرة تشاد مع العرب الشاوية ؟ المعروفين الآن في نيجيريا بالشواعرب Shuwaarabsوخير ما يصور انتشار العربية وتأثيرها هو وجود نسبة كبيرة من الكلمات العربية المستعملة في لغات ولهجات القبائل الصحراوية خاصة الهوسا [4] والكانورية، ومما يؤكد هذا وجود قواعد النحو والصرف في

---

[1] السابق، ص 146.

[2] مجهول، الاستفسار، ص 223-224.

[3] نزهة المشتاق، بيروت، 1998، ص25.

[4] السعدي ، تاريخ السودان ، ص 9

هذه اللغات الإفريقية [1]، وما كان للعربية أن تبلغ هذه الدرجة لولا توافد المسلمين الذين انتشروا هناك بصفة ملموسة بداية من القرن الثاني الهجري / الثامن ميلادي والسبب في ذلك يعود إلى وضع الخلافة الإسلامية خلال تلك الفترة التي امتازت بقصورها وعجزها عن إدارة الأقاليم البعيدة فأدى ذلك إلى ظهور الدويلات المستقلة والمتصارعة فيما بينها لاختلاف مذاهبها[2] أضف إلى ذلك التزاوج والمصاهرة بين العناصر الإفريقية والعربية والبربرية حتى و إن اختلفت دينيا، فيذكر ابن سعيد أن البربر والسودان اختلطا معايشة على مستوى الحضر والبادية، وفي بلاد التكرور حيث يقول "سكان البادية عراة ، والمسلمون منهم يسترون فروجهم بعظام أو جلود، والكفار لا يسترون " [3]ويضيف أحد مؤرخي المنطقة فيقول "إن ضيوف أراضي المراعي قرب نهر النيجر جعل الأفارقة يختلطون بالمسلمين وغيرهم ."[4]

لقد كان لهذا الانتشار للإسلام وما صاحبه من انتشار العربية تأثير واضح في تكوين ثقافة عربية إسلامية في البلاد السودانية ابتداء من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، و إذا تجاوزنا مسألة موضوعية و أفضلية المقاييس المعبرة عن انتشار وازدهار الثقافة العربية الإسلامية في بلاد السودان فإننا نعتمد عدد العلماء ودورهم في نشر الثقافة، تنوع أماكن التعليم والكتب المشهورة، المكتبات الخاصة والعامة .

---

[1] الكعتي، تاريخ الفتاش، ص 42 41

[2] السلاوي، الاستقصاء، ط الدار البيضاء 1955، ج 5، ص 103

[3] كتاب الجغرافيا، ص 109 106

[4] أ سكيا الحاج محمد، أجوبة أسئلة أ سكيا، مخطوط مكتبة مشروع بحث تاريخ شمال نيجريا جامعة أحمد بلو، زاريا رقم 03 36، ص 22

وفي سياق عرض المظاهر الثقافية في بلاد السودان أشير إلى المظهر الأول الذي يجسده العلماء حيث جاء وصفهم على لسان أسكيا الحاج محمد بقوله " منذ من الله علينا بالإسلام أصابتنا مصيبة في هذه البلاد، يقدم الأمانة فيمن ينسب إليه العلم من قراء بلادنا، ومن صفتهم أنهم عجم لا يفهمون من كلام العربية إلا قليلا لذلك يوجد على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون أحكام و أخبار وفيهم قضاة.

ومفسرون يتكلمون في دين الله، ويزعمون أنهم من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، و أنه يجب علينا الاقتداء بهم "[1] واضح من خلال هذا النص أن البيئة الثقافية الإفريقية المعاصرة غنية بالعلماء والطلبة القراء ، مع الكثرة وهذا يعني الانتشار الواسع للثقافة العربية الإسلامية، ويذكر المؤرخ السوداني السعدي أن أربعة آلاف ومأتيين من العلماء حضروا حفل إعلان إسلام سلطان إمارة جاو التي كانت تضم سبعة ألف و سبعة و سبعون 7077قرية متلاصقة[2] وعليه ففي كل قريتين يوجد قارئ أي معلم الصبيان وهذا أمر محتمل الوقوع، ويصبح أمر وجود العلماء بكثرة متواترا عندما يؤكد الرحالة ذلك، فقد لاحظ الحسن الوزان- 10 هـ 16م- عددا كبيرا من الفقهاء والقضاة في تنبكتو، [3] و أشاد الرحالة ابن بطوطة في تحفته إلى مكانة القاضي والخطيب والفقيه في المجتمع وعند الحكام[4] .

لقد استمرت البلاد السودانية زاخرة بالعلماء خلال القرن السابع إلى غاية القرن التاسع الهجري فلما أراد سنى علي سلطان صنغى غزو تنبكتو سنة 873

---

[1] أجوبة أسئلة أسكيا، ص 5 2

[2] السعدي، تاريخ السودان، ص 13 12

[3] و صف إفريقيا، تحقيق محمد حي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإ سلامي، ج 2، ص 167

[4] الرحلة، ص 33، 26، 102

هـ1468م، والتنكيل بالعلماء تدخل شيخ الطوارق بألف جمل لنقل علماء سنكرى [1] إلى ولايته ليجنبهم بطش السلطان سني علي[2]، وبالرجوع إلى كتب التراجم السودانية الواردة في كتاب كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج لأحمد بابا التنبكتي-ت 1036، 1627م- نجده يذكر أعدادا كبيرة من العلماء

أما على مستوى التعليم فأشير إلى أنه كان حسب شهادة الرحالة ابن بطوطة أثناء رحلته إلى مملكة مالي حيث أشاد بعناية أهل السودان بتحفيظ أولادهم القرآن الكريم فيقول "ودخلت على القاضي يوم العيد و أولاده مقيدون فقلت للقاضي ألا تسرحهم، فقال لا أفعل حتى يحفظون القرآن [3] "وهناك رواية أخرى رواها السعدي يقول فيها "كان الولد مربوطا بثياب فيقول "حسن الصورة عليه ثياب زاهية وفي رجلة قيد ثقيل فقلت لمن كان معي ما فعل هذا الولد، فقيل إنما قيد حتى يحفظ القرآن "[4]

أما عن مناهج التعليم فقد خصصت كتب في مختلف الفنون بحيث لا تتجاوز المسائل العامة البسيطة في الحساب، اللغة العربية، والشرح البسيط لمفردات بسيطة في الآيات القر آنية [5] ومدونة سحنون، موطأ، والإمام مالك وبالنسبة لمكان التعليم، فقد كانت الجوامع تعج بالتلاميذ ولم يكن مستواهم أقل من مستوى نظرائهم في الحواضر الإسلامية الكبرى مثل فاس والقيروان وتلمسان وطرابلس، ومستوى شيوخهم راق فمدينة تنبكتو كانت قد عرفت ازدهارا معرفيا مؤكدا حفلت به كتب المؤرخين والرحالة، نذكر من بينهم

---

[1] سنكرى مدينة من مدن السودان الغربي، انظر السعدي، تاريخ السودان، ص 141

[2] يقول السعدي ب أن الفقيه محمد الكابري درس في تنبكو والبلد يومئذ حافلة بالطلبة

[3] ابن بطوطة، الرحلة، ص 173

[4] السعدي ، تاريخ السودان ص 37

[5] الهادي مبروك الدالي، التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 160

المؤرخ السوداني السعدي، و أحمد التنبكتي، ومحمد كعت في مؤلفاتهم كما اشتهر علماء المنطقة بسعة المعرفة بينهم:

1-القاضي أحمد بن محمد أقيت، المعروف باسم "لحاج أحمد "وجد العلامة أحمد بابا التمبكي.

2-القاضي عبد العزيز التكروري

3- القاضي الحاج التمبكتي وقد شغل منصب القضاء بالمدينة في أوائل القرن 7هـ/ 13م.

4- القاضي العلامة الشيخ شمس الدين محمد اللمتوني

وهكذا يمكن أن نستنتج في النهاية بأن الهجرات العربية والبربرية المغربية إلى بلاد السودان الغربي قد مكنت الطرفين منذ القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر ميلادي من الحفاظ على الروابط السياسية و الثقافية وذلك من خلال التجارة والدعوة إلى نشر الإسلام ومد جسور العلاقات السياسية التي دعمت التفاعل بين الطرفين المغربي السودان.

دراسات لغوية